لكن الرجال المشوهين الثلاثة بدءوا يسيرون خلفه؛ إذا أسرع أسرعوا، وإذا أبطأ أبطئوا. وسرعان ما صارت هناك مسيرة كاملة من العاجزين والمجذومين وغيرهم من المتسولين الآخرين يسيرون معه. وأخيرًا، بعد أن حاول الرجوع وشق طريقه بين الجموع، وصل إلى ميدان.

سأل بيير: «أين أنا؟»

أجابه أحد المتسولين: «إنها زاوية المعجزات.»

كانت زاوية المعجزات المكان الذي يقضي فيه اللصوص والغجر وغيرهم من الفئات المعدمة في باريس لياليهم. توهجت النيران في أرجاء الميدان المتسع. أحاطت المنازل القديمة المتهالكة المنطقة. وأحاط به الكثير من الأشخاص الغرباء وهم يصيحون: «لنأخذه إلى الملك! إلى الملك!»

تلعثم بيير: «المـ ... مـ ... ملك؟ لكن أليس الملك يعيش في القصر؟»

صاح رجل كبير: «ليس ذلك الملك يا بني، ليس ذلك الملك!»

دفعه الحشد نحو حانة قديمة متهدمة أحاطت الموائد المتسوسة داخلها بالمدفأة التي توهجت بالنيران وداخلها قدر يغلي ما به. أحاط الرجال والنساء الذين كانوا يجنون أموالهم من الشوارع ببيير المسكين.

كان الملك المزعوم يجلس على برميل بجانب النار. قال الرجل المبتورة ساقاه، وهو نائبه: «انزع قبعتك.» وعندما لم يتحرك بيير تحرك نحوه أحد الأشخاص، وجذبها من فوق رأسه.

قال الملك: «حسنًا، من لدينا هنا؟»

لم يكن الملك سوى ذلك المتسول الذي دمر مسرحيته ذلك الصباح؛ إنه كلوبان!

سأله كلوبان: «ما اسمك؟ وما مهنتك؟ إذا لم تكن واحدًا منا، فأنت في مشكلة كبيرة. هذا مخبؤنا السري، ولا يُسمح هنا بوجود أحد سوى المتشردين واللصوص والمتسولين.»

قال بيير: «أُدعى بيير جرينجوار، ومهنتي شاعر.»

رد كلوبان: «شاعر؟ حسنًا، هذا يحسم الأمر. لقد أخبرتك أنه لا يُسمح هنا إلا بالمتشردين واللصوص والمتسولين. أما الشعراء فغير مُرحب بهم على الإطلاق هنا.»

استدار بيير وقال: «أيها الأباطرة والملوك العظماء، أنتم بالتأكيد لا تنوون إيذائي. أنا شاعر، وقد كتبت المسرحية التي شاهدها الكثيرون منكم هذا الصباح. وانظروا، ليس هناك أي شيء في جيوبي. الكثير من الشعراء متشردون ولصوص مثلكم تمامًا.»

تحدث كلوبان بهدوء مع الرجل الذي يقف بجانبه، وسأل بيير: «هل تقسم على الانضمام إلينا كمتشرد؟»

أومأ بيير برأسه، وقال: «أقبل.»

قال كلوبان: «حسنًا، لكن أولًا يجب أن تجتاز الاختبار.»

أخرج المتشردون فزّاعة ووضعوها في منتصف الغرفة.

وأضاف كلوبان: «يجب أن تقف بتوازن على ساق واحدة، وتسحب الوشاح من جيب الفزّاعة. إذا تمكنت من انتزاعه فسوف تثبت أنك بالتأكيد متشرد وواحد منّا.»

قال بيير: «حسنًا، وإن كان من المحتمل أن تنكسر ساقاي أثناء المحاولة.»

وقف على مائدة ليتمكن من الوصول إلى جيب الفزّاعة، ورفع قدمه اليمنى، وتأرجح. كانت الفزّاعة طويلة للغاية؛ أطول من بيير المسكين بستين سنتيمترًا على الأقل، حتى مع وقوفه على المائدة.

قال كلوبان: «احذر الأجراس الموجودة على جيبه، فسوف ترن إذا أخطأت.»

حاول بيير جاهدًا الوقوف ثابتًا على ساق واحدة. تمايلت المائدة عندما وضع ذراعه فوق رأسه. وما إن أمسك الوشاح في يديه حتى وقع على الأرض، فتعلق الوشاح في جيب الفزّاعة، ودوى صوت الأجراس عاليًا.

قال بيير: «آه، لا!»

قال كلوبان ضاحكًا: «حسنًا، انتهى الأمر. أيها الصبية، أمسكوا به وألقوا به بالخارج.»

قال بيير: «انتظروا!»

تفرق الجمع، وكانت الفتاة الغجرية تقف هناك. دوت الصيحات من حول بيير: «إزميرالدا!».

سألت الفتاة كلوبان بجرأة: «هل ستلحق الأذى بهذا الرجل؟»

أجابها: «نعم، إلا إذا طلبتِ منا ألا نفعل ذلك. أنت تعلمين أنني أعتبرك ملكتنا يا إزميرالدا! إذا رأيت أنه يجب إطلاق سراح هذا الرجل فسوف نفعل ذلك. لكنني لا أعرف لماذا تريدينه أن يعيش؟!»

قالت: «لقد حاول إنقاذي عندما حاول أولئك الرجال البشعون اختطافي. لذا، نعم، فأنا أسألكم إطلاق سراحه.»

اعتقد بيير أنه يحلم بالتأكيد، لكن عندئذٍ تركه الرجال الذين كانوا يمسكون به.

قال كلوبان: «أنتِ تعلمين أنه في حال إنقاذك له فستكونين مسئولة عنه. علينا أن نسوي الأمر برمته باستخدام الإبريق.»

قالت إزميرالدا: «حسنًا، أين هو؟»

أعطاها أحد المتشردين الإبريق.

أعطته لبيير، وقالت: «ألقِه على الأرض.»

فعل كما طلبت منه بالضبط، فانكسر الإبريق إلى أربع قطع.

قال كلوبان: «حسنًا، بحكم السلطة المخولة لي أعلن زواجكما مدة أربع سنوات.»

أشار إلى بيير وقال: «يمكنك المغادرة، لكن قوانينا تنص على أنك يجب أن تثبت أنك واحد منا بانتهاء تلك السنوات الأربع. والآن، لتغرب عن وجهي.»

الفصل الخامس

حياة شبه زوجية

بعد دقائق قليلة وجد بيير نفسه في غرفة صغيرة دافئة. تحركت الفتاة في المكان سريعًا وتحدثت إلى دجالي. لم تنتبه إليه على الإطلاق.

أخذ بيير يفكر: «يا لها من ملاك! لقد أنقذت حياتي.»

وقف الشاعر سريعًا على نحو أفزع إزميرالدا، فسألته: «ماذا تريد؟»

مال بيير عليها ليقبلها مفتونًا بجمالها وحنانها. انتفضت إزميرالدا وابتعدت وهي تقول: «أنت وقح للغاية!»

تحركت النعجة بينهما، وبدا قرناها المطليان بالألوان لبيير حادين للغاية.

سألها: «لماذا إذن أنقذت حياتي؟»

قالت: «ما كان بإمكاني أن أسمح لهم بإيذائك، أليس كذلك؟ ليس بعد أن حاولت إنقاذي من أولئك الرجال البشعين.»

قال: «أكان ذلك السبب الوحيد؟»

أجابته: «نعم، السبب الوحيد.»

قال: «حسنًا، أعدك ألا أحاول تقبيلك ثانيةً أبدًا. لنكن أصدقاء، رجاءً. أيمكنك أن تجعلي النعجة ترحل؟»

نظرت إزميرالدا إلى بيير، ثم دجالي. ظل الغضب يبدو عليها لحظة، لكنها ضحكت بعد ذلك.

قالت: «حسنًا، يمكن أن نكون كشقيق وشقيقة. لنتناول الآن العشاء.»

قفزت إزميرالدا من فوق السرير حيث كانت تقف. جلسا بهدوء على المائدة، وتناولا بعض الخبز والجبن. أطعمت إزميرالدا دجالي بعض كسرات الخبز من يديها.

سألها بيير: «ألا تؤمنين إذن بالحب؟»

قالت: «بلى، أن يكون اثنان شخصًا واحدًا، إنه النعيم بعينه.»

سألها: «لكنك لا تحبينني؟»

قالت إزميرالدا: «أنت؟ لا، فليس لديك خوذة أو سيف أو حصان.»

قال: «إذن، إذا أصبح لدي حصان فستحبينني؟»

لم تجبه إزميرالدا، لكنها حدقت بعيدًا أمامها، وقالت: «الرجل الذي سأحبه يجب أن يكون قادرًا على حمايتي.»

قال بهدوء: «كحمايتك من الأحدب في وقت مبكر من هذا المساء؟»

سالت الدموع سريعًا من عينيها وقالت: «ذلك الأحدب البشع.»

أراد بيير أن يطول الحديث، فنادرًا ما كان ينعم بصحبة أي أحد، لكنه انتبه إلى أن إزميرالدا كانت ترغب في الهدوء لبعض الوقت.

قال بيير عن دجالي: «إنها جميلة للغاية.»

قالت: «شكرًا لك. إنها كل عائلتي.»

– «لماذا تُدعين إزميرالدا؟»

– «لا أعلم. ربما بسبب هذه؛ إن لونها أخضر، وإزميرالدا تعني الزمرد.» وأخرجت قلادة لتريها له. كانت كيسًا من الحرير الأخضر في منتصفه خرزة زجاجية كبيرة. انحنى بيير للأمام ومد يده، فصاحت إزميرالدا: «كلا، لا تلمسها، وإلا ستضيع التعويذة.»

سأل بيير: «أي تعويذة؟ من الذي أعطاها لك؟» فلم تجب الفتاة، لكنها دستها ثانيةً في ملابسها.

سألها: «هل وُلدتِ في باريس؟»

أجابت إزميرالدا: «كلا، لقد أتيت إلى هنا عندما كنت فتاة صغيرة.» ثم نظرت إليه وقالت: «أنا لا أعرف حتى اسمك.»

– «اسمي بيير جرينجوار.»

كان التشجيع البسيط هو كل ما أراده بيير، فأخبر إزميرالدا مسرورًا بكل شيء عن أسرته وكيف أتى إلى باريس عندما بلغ السادسة عشر. أخبرها أنه امتهن جميع أنواع الوظائف قبل أن يقرر أن يصبح شاعرًا وكاتبًا مسرحيًّا، وأن كلود فرولو رئيس الشمامسة ساعده في تعلم الحروف. قال: «إنني أعرف اللاتينية أيضًا.»

سألت إزميرالدا: «إذا كنت تعرف اللاتينية فهل يمكن أن تخبرني ماذا يعني اسم فيبس؟»

تحير بيير بشأن علاقة هذا السؤال بما كان يقوله، لكنه أجابها على أية حال، فقال: «الشمس.»

قالت: «الشمس؟»

أجابها: «نعم، إنه اسم رامي سهام وسيم كان إلهًا.»

قالت إزميرالدا: «إله!» وفي تلك اللحظة سقطت إحدى أساورها الذهبية على الأرض، وانحنى بيير لالتقاطها. وعندما اعتدل في جلسته ثانيةً سمع قرقعة مزلاج الباب؛ فقد ذهبت إزميرالدا إلى غرفة أخرى.

قال بيير وهو يقف ويسير في أرجاء الغرفة الصغيرة: «حسنًا، فلأنَمْ أنا أيضًا.» عثر على صندوق يصلح أن يكون سريرًا، فاستلقى عليه. ولم يكد يسند رأسه على الخشب الصلب حتى غط في نوم عميق.

الفصل السادس

القِس والأحدب

ترجع أصول كلود فرولو، رئيس الشمامسة، إلى أسرة نبيلة. أراد أن يصبح قسًّا منذ أن كان صبيًّا صغيرًا. تعلم اللاتينية في طفولته، واعتاد على القراءة طوال الوقت، وكان يأخذ دراسته على محمل الجد.

توفي والداه، على نحو مؤسف، عند انتشار الطاعون العظيم عام ١٤٦٦. أصبح كلود رب الأسرة، وتولى رعاية أخيه الرضيع، جيون. كان الأمر شاقًّا أن يجمع كلود فرولو بين الدراسة ورعاية أخيه، لكنه تمكن من تدبر الأمر بنجاح. وعندما بلغ جيون العشرين كان كلود فرولو قد أصبح قسًّا بكاتدرائية نوتردام.

وعلى الرغم من توجيهات كلود فرولو، شب جيون جامحًا. وكلما ازداد تسكعه اتخذ كلود فرولو دراسته على نحو أكثر جدية. وكلما قرأ أكثر ازداد اهتمامه بالكيمياء والتنجيم.

بدأت إشاعة تنتشر حول كلود فرولو بشأن بنائه غرفة سرية في الكنيسة، وممارسته السحر خلف الأبواب المغلقة.

وفي أحد الأيام نادت على كلود فرولو عجوزتان كانتا تقفان بالقرب من مقاعد الكنيسة. عثرت الأرملتان على طفل صغير في سرير خشبي بالقرب من تمثال القديس كريستوفر. كان مدثرًا في كيس من الخيش، ورأسه تبرز من أعلى الكيس. كان شعره أحمر كثيفًا، وأسنانه معوجة، وله عين واحدة.

عندما سمع كلود فرولو بكاء الطفل المسكين، عرف أنه يجب أن يتولى رعايته كما كان يرعى جيون الصغير بالضبط.

قال كلود فرولو للأرملتين: «سأتبنى هذا الطفل المسكين.»

حمل فرولو الطفل، ولفه في معطفه، وسار مبتعدًا.

عمّد فرولو الصبي، وأطلق عليه اسم كوازيمودو. وعاش الاثنان معًا في سعادة.

عندما بلغ الصبي الرابعة عشرة حصل كلود فرولو لكوازيمودو على وظيفة قارع الأجراس في كاتدرائية نوتردام، وصارت الكنيسة عالمه. عندما كان طفلًا كان كثيرًا ما يُعثر عليه وهو يتسلق الصخور، ويسحب نفسه أعلى السلم أو أسفله. كانت الكاتدرائية لكوازيمودو مثل القوقع للحلزون، فبين جنبات ذلك المكان لم يزعجه أحد أو يوجه له السباب. وبداخله كان يشعر بالأمان.

لم يعلم أحد في باريس مداخل كاتدرائية نوتردام ومخارجها مثل كوازيمودو. لم تكن هناك زاوية لم يكتشفها، أو برجًا لم يتسلقه — أحيانًا من الخارج! — أو صخرة من الرخام لم يلمسها.

أمدته النوافذ بكل الضوء الذي كان يحتاجه. كانت التماثيل أصدقاءه، والطيور المصنوعة من الصخر حيواناته الأليفة. لكن أكثر شيء كان يدخل السرور على قلبه هو الأجراس؛ فكان يتحدث إليها بلغته الخاصة. أحب ملمسها والأصوات التي تصدرها. كان هناك خمسة عشر جرسًا يقرعها كوازيمودو، بأصوات رنين مختلفة كل يوم. وفي أيام مثل الكريسماس كان يقرعها جميعًا!

كان الصديق الحقيقي الوحيد لكوازيمودو هو كلود فرولو الذي علّمه القراءة والكتابة والكلام. حتى عندما يحتد كلود فرولو عليه ويتحدث معه بغضب كان كوازيمودو يحبه. وعندما فقد كوازيمودو سمعه من جراء قرع الأجراس اخترع هو وكلود فرولو لغة إشارة خاصة بهما. كان كوازيمودو يفعل أي شيء يأمره به كلود فرولو، دون أن يسأل أي سؤال؛ ولو كان ذلك الشيء هو اختطاف فتاة.

الفصل السابع

سير روبرت والمحاكمات الصباحية

كان سير روبرت، عمدة باريس، عادةً رجلًا سعيدًا للغاية. لكن في صباح ٧ يناير من عام ١٤٨٢، استيقظ بمزاج عكر.

أما السبب وراء هذا المزاج السيئ فيرجع إلى معرفته بأن الفوضى كانت تعج بالمدينة إثر المهرجان، وكان عليه أن يتأكد من تنظيفها. كان عليه أيضًا أن يقضي اليوم في المحكمة ليستمع إلى جميع المشكلات التي حدثت في اليوم السابق، وما أكثر المشكلات التي كانت تحدث في المهرجانات. بكل المقاييس كان من المتوقع أن يكون يومًا طويلًا!

لقد تأخر سير روبرت الآن. بدأت المحاكمات الساعة الثامنة ذلك الصباح. اكتظ عشرات الناس في القاعة الصغيرة لسراي المحكمة الرئيسية. وقف رقيبان يرتديان سترات زاهية اللونين الأزرق والأحمر عند الباب، ووقف حاجب في الجوار يكتب سريعًا. كان القاضي كبيرًا أصم، وتسبب هذا دائمًا في عدد من المشكلات.

كان كثير من الطلاب الذين حضروا المسرحية بين الجمهور الذي يتابع القضايا. كان أحدهم جيون شقيق كلود فرولو، وكان معه صديقه جوان. أخذ الاثنان يضحكان ويمزحان بشأن الناس الذين كان يعاقبهم القاضي.

ربت جيون على كتف صديقه للفت انتباهه وقال: «انظر يا جوان! إنه كوازيمودو، ملك المهرجين الأحدب الأعور الذي يشفق عليه أخي.»

كان كوازيمودو يقف بالفعل مقيد اليدين والقدمين، وحوله مجموعة كاملة من الجنود، لكنه لم يصدر أي صوت. نطق الكاتب بالتهم الموجهة لكوازيمودو. بذل القاضي أقصى جهده لإخفاء صممه، وكان دائمًا يقرأ الملفات مسبقًا حتى لا يطرح الكثير من الأسئلة. ألقى برأسه حينذاك إلى الوراء وأغلق عينيه. وخيم الصمت على القاعة.

صاح القاضي: «ما اسمك؟»

لم يجب كوازيمودو الذي كان يعاني الصمم أيضًا. واصل القاضي حديثه: «حسنًا، ما عمرك؟» ومرة أخرى لم ينطق الأحدب.

– «حسنًا، أنت متهم بإحداث أضرار، والتسبب في شغب بالليل، ومهاجمة فتاة، ومقاومة الاعتقال. ما دفاعك؟»

دوى ضحك عالٍ في القاعة، حتى الحاجب نفسه كان يقهقه. استدار كوازيمودو وهز كتفيه، فظن القاضي أنه من تسبب في إضحاكهم.

سأل القاضي: «هل تدرك حجم المشكلة التي أنت بصددها؟ هل تعلم مع من تتحدث؟»

أدى ذلك السؤال الأخير إلى ارتفاع صوت الضحك أكثر، وظل كوازيمودو صامتًا. لم يعد في القاعة أحد لا يقهقه سوى الأحدب والقاضي. اهتز جنود الحرس من الضحك أيضًا.

أراد القاضي أن يخافه كوازيمودو، فصاح: «كيف تجرؤ على التصرف هكذا أمام القاضي! أنا المسئول هنا، وأنا من يضع القواعد.»

انفتح الباب فجأة، وظهر سير روبرت؛ فصاح القاضي: «سيدي العمدة، أريد أن أعرف كيف ستعاقب هذا الرجل!»

شق العمدة طريقه وسط الحشد، وجلس على الكرسي، ثم استدار لكوازيمودو وقال: «ما الذي فعلته لينتهي بك الأمر هنا؟»

ظن كوازيمودو أن سير روبرت كان يسأله عن اسمه، فأجاب بصوته الأجش: «كوازيمودو.»

غضب سير روبرت، وقال: «هل تسخر مني؟»

ظن كوازيمودو تلك المرة أن سير روبرت كان يسأله عما كان يفعله لجني قوت يومه، فأجاب: «قارع أجراس بكاتدرائية نوتردام.»

بدأت القهقهة ثانيةً، فسأل العمدة: «قارع أجراس؟» ولم يكن مزاجه قد تحسن، فأردف: «ما الذي تتحدث عنه؟»

قال كوازيمودو: «أعتقد أنني سأبلغ العشرين في غضون شهور قليلة.»

أدت إجابات كوازيمودو الغريبة إلى فقدان العمدة لأعصابه، فقال: «خذوه إلى الخارج، ورشوه بالماء البارد؛ فسيفزع ويتحدث بعقلانية.»

لكن القاضي اكتشف أخيرًا ما كان يحدث، فقال: «يا إلهي! إنه أصم! ليست هناك حاجة لرشه بالمياه. لنقيده بعمود التشهير في ميدان بلاس دي جريف لمدة ساعة، فسيتعلم الدرس عند تقييد رأسه ويديه في الألواح الخشبية.»

صاح جوان وجيون: «أحسنت! أحسنت!»

كان ميدان بلاس دي جريف يعج بالفوضى! فكانت الأسمال البالية والشرائط والريش وبقع الشمع تكسو الميدان. كان أصحاب المتاجر جميعهم بالخارج يحيون أي أحد يمر.

كان هناك أعضاء من الحرس الملكي يقفون بجانب عمود التشهير لحراسته طوال النهار. وكان الناس يعلمون أن ذلك يعني أن هناك من سيُعاقَب في ذلك اليوم، فانتظروا.

وسرعان ما دوت الصيحات عند إحضار كوازيمودو. كان مشهدًا عظيمًا لملك المهرجين الذي صار الآن سجينًا ذليلًا. لكن كوازيمودو ظل هادئًا؛ فلم يصح أو يبكِ.

قال جيون لجوان: «انظر إليه! ليست لديه أية فكرة عما سيحدث له.»

اقتاد رجل مخيف الهيئة كوازيمودو إلى عمود التشهير. وعندما أدرك كوازيمودو أن الكتل الخشبية الضخمة ستكون سجنه أخذ يرتعش. أدت النظرة التي ارتسمت على وجهه إلى ضحك الجميع، إذ كان مرعوبًا. جذب الرجل ذراعي كوازيمودو نحو عمود التشهير، وأدخل رأسه عنوة في المكان المخصص لذلك. في بداية الأمر، قاوم الأحدب وهز عمود التشهير بكل ما أوتي من قوة، لكن أُحكم غلقه بعد ذلك. فسقط وجه كوازيمودو، وأغلق عينه وسمح لرأسه بأن تهبط بالقدر الذي يسمح به السجن الخشبي.

الفصل الثامن

ثقب الفئران

كان المبنى الموجود غرب الميدان مملوكًا في الماضي لامرأة شابة جميلة أصابها حزن شديد بعد وفاة والدها في إحدى الحروب. بكت والدها بإغلاق المنزل عليها، والعيش في غرفة بالغة الصغر في الطابق الأول. وعندما توفيت تركت المنزل ليُستخدم في غرض واحد فقط؛ أن يكون مكانًا لبكاء الأحباب. كانت الغرفة الصغيرة المغلقة والمظلمة، فيما عدا نافذة ذات قضبان وبلا زجاج، معروفة في الميدان باسم «ثقب الفئران». وعاشت داخلها عجوز شمطاء.

في اليوم الذي نُقل فيه كوازيمودو إلى عمود التشهير، كانت هناك سيدتان تسيران نحو ثقب الفئران؛ إحداهما تُدعى آن، وهي زوجة العمدة. أما الثانية، فهي قريبة لها أتت من الريف وتُدعى صوفي. كانت صوفي تمسك بيد ابنها، واسمه أوستاش، وكان يحمل كعكة للسيدة العجوز.

قالت آن: «هيا يا صوفي! لا نريد أن نتأخر. قال زوجي إن الأحدب لن يبقى بعمود التشهير سوى ساعة واحدة، مما لا يترك لنا متسعًا من الوقت لفعل الخير وإعطاء الكعكة للعجوز الشمطاء.»

وفي الطريق أخذت السيدتان تثرثران بشأن أحداث اليوم السابق. قالت صوفي فجأة: «انتظري! ما هذا؟»

كان بإمكان السيدتين سماع صوت رقّ من على بعد مسافة منهما. فردت آن على صوفي قائلةً: «لا بد أنها الغجرية إزميرالدا، تعزف وترقص مع نعجتها. هيا أسرعي! لنذهب لمشاهدتها. سيحب أوستاش ذلك كثيرًا بالتأكيد.»

توقفت صوفي فجأة وهي تقول: «غجرية! كلا، يمكن أن تختطف ابني. تعال يا أوستاش!»

جرّت صوفي ابنها خلفها، وهي تركض نحو ميدان بلاس دي جريف. وأخيرًا توقفت بعد أن صارت لا تقوى على مواصلة الركض. وسريعًا ما لحقت بها آن التي قالت: «يا إلهي، ما الخطب؟ ماذا تعنين بقولك إن الغجرية ستخطف ابنك؟»

فما كان من صوفي إلا أن هزت رأسها.

قالت آن: «أتعلمين، عندما أفكر في الأمر، أتذكر أن العجوز الشمطاء الموجودة في ثقب الفئران تظن الأمر نفسه في الغجريات.»

سألت صوفي: «حقًّا؟»

أجابت آن: «نعم، لقد سمعت عن ذلك ذات يوم.»

قالت صوفي: «لست أرغب في أن يلقى أي أحد مصير باكيت.»

سألت آن: «ومن باكيت؟ لم أسمع عنها من قبل. يجب أن تخبريني بقصتها!»

– «كانت باكيت سيدة شابة من رانس تعرضت لمأساة مروعة عندما كانت لا تتعدى الثامنة عشرة من عمرها. توفي والدها عندما كانت صغيرة السن، وبالرغم من أنها تنتمي لأسرة كريمة، فقد عانت هي ووالدتها فقرًا مدقعًا. وبعد بضع سنوات من وفاة والدتها أنجبت باكيت فتاة.

كانت الفتاة تُدعى آنيس، علقت باكيت كل آمالها وأحلامها عليها. وفاقت الفتاة والدتها جمالًا. وفي أحد الأيام وصل الغجر إلى رانس لقراءة الطالع، لكن حُظِر عليهم دخول المدينة، فأقاموا خيامهم على أطرافها. ذهبت المدينة كلها بالطبع لرؤيتهم. وأرادت باكيت أن تعرف ما سيحدث لابنتها، فحملتها لرؤية الغجر.

قال قراء الطالع إن الفتاة ستصبح ملكة رائعة الجمال، فملأت البهجة قلب باكيت. وفي اليوم التالي تركت آنيس نائمة لدقائق معدودة، وذهبت لإخبار إحدى جاراتها بالأخبار السعيدة. وعندما عادت للمنزل فوجئت بعدم سماع صوت بكاء الطفلة.

اعتقدت باكيت أن الطفلة لا تزال نائمة، لكنها عندما فتحت باب الغرفة لم تجد آنيس. فهرعت لأسفل وهي تصيح: «خطف أحدهم طفلتي!»

كان الشيء الوحيد الذي تُرك في إثرها فردة حذاء صغيرة من الساتان.

كان الشارع خاويًا، ولم ير أحد ممن سألتهم الفتاة. وعندما عادت باكيت إلى غرفتها سمعت بكاء طفل، فظنت أنها آنيس.

لكنه لم يكن كذلك. فتحت الباب لتجد طفلًا أعور أعرج مشوهًا، مسخًا صغيرًا بدا أنه في الرابعة من عمره.

صرخت باكيت، وعادت ركضًا إلى الخارج، وهي تصيح: «خطف الغجر طفلتي، وتركوا مكانها مسخًا!»

خرج الجميع في رانس للبحث عن آنيس، لكن الغجر كانوا قد رحلوا. وعلى بعد ميلين خارج المدينة عثروا على إحدى شرائط الطفلة. اشتعل رأس باكيت شيبًا في اليوم التالي لذلك الحادث مباشرةً. وفي اليوم الذي يليه اختفت.»

أنهت صوفي روايتها، ونظرت إلى قريبتها. علا الشحوب وجه آن، وقالت: «يمكنني أن أدرك الآن سبب خوفك من الغجر.»

قالت صوفي: «لا أحد يعلم ما حدث لباكيت؛ البعض يقولون إنها غرقت في النهر، وآخرون يقولون إنها سارت حافية القدمين إلى باريس.»

سألت آن: «وما الذي حدث للمسخ الغجري؟ هل غرق مع باكيت؟»

قالت صوفي: «كلا، على الإطلاق. تركه شخص ما بكاتدرائية نوتردام، وشعر رئيس الشمامسة بالأسى لحاله، فباركه، وسمح له بالعيش في المكان.»

وصل الثلاثة إلى ميدان بلاس دي جريف. وفي ظل انشغال السيدتين الشديد بما تحمله قصة باكيت من إثارة نسيتا تمامًا مَن كان بعمود التشهير. وعندما أدركتا أنه كوازيمودو، توقفتا بلا حركة؛ إنه المسخ الغجري الذي ذكرته صوفي في روايتها. ولولا جذب أوستاش لذراع والدته، متسائلًا هل بإمكانه تناول الكعكة، لظلتا على تلك الحالة من الصدمة.

قالت صوفي بهدوء: «يا إلهي! كدنا ننسى السيدة بثقب الفئران. هيا، لنذهب الآن، ونعطي السيدة العجوز الكعكة. لا حاجة لنا في مشاهدة ذلك!»

عبرت آن وصوفي إلى الجانب الآخر من الميدان، ووقفتا أمام نافذة ثقب الفئران على أطراف أصابعهما، ونظرتا إلى الداخل. كان بالغرفة المظلمة امرأة شيباء نحيلة تجلس منكمشة ويداها على ركبتيها. كان البرد قارسًا داخل الغرفة، ولم تكن لديها ملابس للشتاء.

قالت صوفي: «يجدر بنا عدم إزعاجها.»

ردت آن: «أتعلمين، يمكنني تخيل باكيت في مكان كهذا تعاقب نفسها على ما حدث لابنتها الجميلة.»

وفي تلك اللحظة رأت صوفي حذاء طفلة في الغرفة، فقالت لاهثة: «انظري! إنه الحذاء ... الحذاء الصغير المصنوع من الساتان! إنها باكيت!»

فصرخت آن.

قال أوستاش: «أرجوك يا أمي، أيمكنني تناول هذه الكعكة؟»

أيقظ صوت الصبي العجوز الشمطاء من غفوتها، فقالت: «هل ما تسمعه أذناي صوت طفل؟ أبعدوه عن هنا! أبعدوه قبل أن يأتي الغجر!» وزحفت على ركبتيها نحو الحذاء، ثم تنهدت وسقطت.

حدثت ضوضاء حول عمود التشهير، فأيقظت العجوز الشمطاء التي ركضت نحو النافذة وصاحت: «لا بد أن الغجرية تنادي عليّ!»

مدت ذراعيها النحيلتين من بين القضبان، وصاحت: «إذن فهذا أنت أيتها الغجرية! خاطفة الأطفال، اللعنة عليك! اللعنة عليكم جميعًا!»

صرخت صوفي، وفرت هي وآن وهما تجذبان أوستاش خلفهما.

الفصل التاسع

كوازيمودو في عمود التشهير

أخذ الحشد المتجمع حول عمود التشهير يضحكون ويلقون بالحجارة على كوازيمودو؛ فقد كان هدفًا سهلًا، وغالبًا ما كانت الحشود المتجمعة ترمي السجناء في عمود التشهير بكافة الأشياء.

هز كوازيمودو العمود، وأخذ يتأرجح جيئة وذهابًا. صار وجهه أحمر، ثم رأى كلود فرولو على حصانه، وظن أنه قد كُتبت له النجاة! لكن لم يدم بقاء القس طويلًا، فركل حصانه بقدميه لينطلق الحصان مبتعدًا.

صاح كوازيمودو بصوت أجش: «ماء!»

فما كان من الحشد حول عمود التشهير سوى أن علت ضحكاتهم أكثر. وكلما ازدادت حركة كوازيمودو صار أكثر عطشًا، وأخذ يصيح: «ماء!»

ألقى جوان بإسفنجة متسخة جاء بها من قناة تصريف المياه على كوازيمودو، وهو يقول: «إليك بالماء!»

صاح كوازيمودو غاضبًا: «ماء!»

في اللحظة ذاتها سارت إزميرالدا وسط الحشد مع دجالي. ولاحظت أن كوازيمودو في مشكلة، فتوجهت نحوه مباشرة، وسحبت زجاجة مليئة بالماء، وأعطتها له ليشرب.

لم يكن بمقدور إزميرالدا تحمل الوقوف مكتوفة اليدين وهي تشاهد أي شخص يتألم. كانت تعلم أن كوازيمودو قد عانى بما فيه الكفاية، وراودها شعور بأن محاولة اختطافها لم تكن فكرته. وقد رأت الرجل المرتدي العباءة وهو يجري مبتعدًا عن الميدان. كان التفكير فيه فقط يجعل القشعريرة تسري في جسدها.

تأثر الناس في الحشد بحنان إزميرالدا؛ فتوقفوا عن الضحك ومضايقة الأحدب.

وعندما لمحت العجوز الشمطاء إزميرالدا من نافذتها صاحت: «أيتها الغجرية الملعونة! اللعنة عليك!»

شحب وجه إزميرالدا، ونزلت سريعًا من فوق عمود التشهير، وركضت بأقصى سرعتها. كانت العقوبة المفروضة على كوازيمودو قد انتهت مدتها آنذاك، فأُطلق سراحه، وتفرق الحشد ببطء.

نكس كوازيمودو رأسه في خزي أثناء عودته سيرًا على الأقدام إلى كاتدرائية نوتردام؛ كانت التعاسة تملأ قلبه بحق. لماذا لم يساعده كلود فرولو؟ ما الخطأ الذي ارتكبه؟

قال كوازيمودو محدثًا نفسه: «خلت عيناه من أي مشاعر، مع أنني ما كنت لأصل إلى عمود التشهير لولا أنني فعلت ما طلبه مني.»

وفي حقيقة الأمر، لولا تلك الفتاة الغجرية نفسها التي أراد كلود فرولو أن يخطفها الليلة الماضية، لكان حاله ازداد سوءًا وهو في عمود التشهير. لكنه لا يزال غير قادر على فهم سلوك كلود فرولو.

الفصل العاشر

إزميرالدا تلتقي فيبس ثانيةً

أشرقت الشمس، وأخذ الناس يتجولون جيئة وذهابًا مستمتعين بالربيع في باريس. أخذت مجموعة من الشابات النبيلات الجميلات يضحكن في منزل السيدة ألويز الجميل الموجود بالجانب الآخر من كاتدرائية نوتردام. كانت فلور دي ليس، ابنة السيدة ألويز، تقهقه مع صديقاتها.

جلست السيدة ألويز في كرسي مخملي، وبجانبها شاب طويل. كان القائد فيبس الذي أنقذ إزميرالدا منذ شهور طويلة.

كانت السيدة ألويز بين الحين والآخر تتحدث مع القائد فيبس، ثم تنظر إلى ابنتها، وتقول شيئًا من قبيل: «انظر كيف تحسن التطريز.»

ويكون رد القائد: «نعم، بالتأكيد.»

سألت السيدة ألويز القائد: «هل رأيت فتاة على القدر نفسه من جمال خطيبتك؟ إنها كالبجعة في جمالها، أليست كذلك؟»

فجاء رده تلك المرة أيضًا: «نعم، بالتأكيد»، بالرغم من أنه لم يكن يفكر في فلور دي ليس.

دفعته السيدة ألويز تجاه فلور دي ليس، وهي تقول: «هيا اذهب وتحدث معها! لقد دام صمتك طويلًا اليوم.»

توجه فيبس إليها وقال: «عما يعبر ذلك النسيج الذي تطرزينه، يا فلور دي ليس؟»

أجابت: «كهف جميل في إيطاليا يُعرف باسم كهف نبتون. هذه المرة الثالثة التي تسألني فيها هذا السؤال.»

قال: «آه!»